فصل من رواية

القطاف

بقلم حنا مينه

لم يستطع المطعون أن يطردنا، ولا استطاع أن يقهرنا، فقد تماسكنا. لم ننهزم من الداخل، ولا انكسرنا، وكان ذلك بفضل الأخت، التي أشعلت في أوراق الزيتون شموعاً للأمل. ضوّأت كل ما حولنا، حالت بين برد الغربة، وفراق الأب، ولؤم الوكيل، وبين اليأس أن يتسرّب إلى نفوسنا. تحدّت المطعون، أبدت استعداداً لترك البورة، كأن لا شيء، في هذا الوجود، قادر أن يلوي شكيمتها. وحتى الأم، الخائفة بطبعها، أزاحت خوفها جانباً، ولو بصورة مؤقتة. وأنا الذي كنت أحمل أفكاراً، يحول الخجل بيني وبين أن تصبح سلوكاً لي، غدوت، بفضل أختي، أقلّ مبالاة بالروح العدائية، التي يحملها المطعون نحونا. ولعلّ الشوباصي، الذي أمر ببقائنا، كان يريد، من تصرّفه ذاك، أن يعاكس المطعون أكثر مما كان يريد رفع ظلامة عنّا.

كنا، في النهار، نجمع الزيتون، وفي الليل أحرس البورة. تقول أختي، قبل أن تدخل الخيمة لتنام: «لا تقلق كثيراً وأنت تقوم بمهمة الناطور، ليس من يجرؤ على الاقتراب من البورة، ولو اشتبهت، بأيّما زوال، حركة، خشخشة في العشب، بين الأشجار، أيقظني» فأجيبها، مستمداً من كلماتها شجاعة: «نامي أنت، لا تفكري.. ليس ثمة ما يخيف، ولن أصيح، أو أهرب، حتى ولو جاء اللصوص حقيقة، أو دبّر المطعون، غارة ما، بقصد الإيقاع بنا. لصّ الزيتون تكفيه تصفيقة كفّ حتى يولي الأدبار، إنه مثل الفلّاح صخر، يريد حفنة زيتون لأولاده لا أكثر». غير أنني، في وحدة الليل، وحشته، وأنا أدور حول البورة، والجميع نيام من حولي، كانت الطمأنينة تفارقني، أظل متوجّساً، متلفتاً، مرهف السمع، وهذا ما كان ينفي نومي، ويبعث رعشة صغيرة، غير مريحة، في أوصالي، فأستشعر تفتّتاً في أعصابي، ولا تعاودني الطمأنينة إلا في الفجر، حين تبلغني دقّات الأجراس في أعناق الجمال وهي مقبلة من بعيد، مخترقة صفوف الأشجار في طريقها إلى البورة. كان الرنين الحلو، المحمول على أكتاف الريح، يشبه رنين النواقيس، فهو سلام وخشوع في آن: سلام يحمل تباشير الصباح، وخشوع لما فيه من إيقاع رتيب، يذكّر بالأمسيات والصباحات للأديرة التي أسمع بها وأقرأ عنها.

لقد تقمّصت، تلك الليالي الصيفية، شخصية والدي، فأنا أحمل عصاه، وأضرب بها الأرض، وأضعها، تارة على كتفي، مشبكاً ذراعيّ بها، وأنزلها طوراً، فتغدو في يدي سلاحاً خشبيّاً لا قيمة له، لكنه، بالنسبة لطفولتي تلك، كان سلاحاً ما، أتصوّر نفسي وأنا أستعمله، أضرب به، أندفع على اللصّ وهو مشهر في يدي، واللصّ، من جهته، يرفع عصاه، وتبدأ المبارزة، ومن كان زنده أقوى، وعصاه أمتن، هو الذي يفوز، فإذا تحطّمت عصاي، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي أصرخ، أوقظ من حولي، وتبدأ المعركة التي كانت متخيّلة، وظلّت كذلك إلى أن انتهى الموسم.

ومع أن هواجسي كانت تغتال الفرحة التي يولّدها الليل الصيفي، فإن بهاء الطبيعة كان يفرض وجوده، والسماء ذات النجوم، تقترب منّي لتخطفني إلى مراتعها، فينبت لي جناحان، وأغدو أنا الفتى الذي ما زال، بسبب الفقر، يلبس بنطاله الأسود القصير، طيراً مكسوّاً بالريش الأبيض والأصفر، وبيسر، كما في الحلم، أطير وأقفز في طيراني فوق الأودية الخضر، وأمدّ يدي إلى النجوم، ساحباً معي رئيفة إلى خمائل سماوية بعيدة عن الأنظار، حيث أستطيع، دون ممانعة منها، أن أضع ذراعي حول كتفيها، وأنا أقول كلمات حلوة، عذبة، ساحرة، وهي تبتسم وتبتسم، متقبلة كلماتي بالرضى، والودّ، والحبّ الذي كان عذريّاً، لكنه، في اندفاعات الغريزة، يلامس أطرافها، صدرها، ويخطف، من عنقها، خدّها، شفتيها، قبلات مسكرة.

كان ذاك حبّي الأول، كان حبّاً بكراً كالموجة الزرقاء الأولى على الشاطىء المحصب، وكان شغلي، في السهر الطويل، أن أخترع

ألفاظاً أعدّها للقاء المقبل. ولم أكن أفكّر بمعنى هذا الحبّ، نتيجته، مصيره، أنا الفتى الذي في النهار، حين ينبلج الضوء، ويحيل إلى ذرات أجمل أماني الليل، أخجل من كثير من تصوّراتي. كان حبّي، ذاك، فوق الفقر، فوق المادة، فوق الواقع. كان خيالاً جميلاً، يتغذّى على أحلام بريئة لمراهقة مبكرة، لو أعطيت أن تفكر، أن تتساءل، أن تحاذر، لارتطمت بصخرة وتفتّت، أو تبخّرت، شأن البحر الذي يرتطم بصخر الشاطىء.

وكنت في حبّي الفتيّ هذا، أخشى العيون، وأنأى به عن المظانّ، أصونه في الحدقتين، وأمشي إليه كأنني على جمر، شاعراً في كلّ خطوة، أن ثمة من يراقبني، ومن يحصي عليّ أنفاسي، وخاصّة الأخت، التي لا يمكن أن يفوتها تعلّقي برئيفة، وغيابي، في الأماسي، عن البورة، حيث أزعم أنني أقوم بجولات في الكرم، ترويحاً عن النفس، أو أذهب إلى والد رئيفة أتبادل معه بعض الأحاديث.

ظني أن أختي كانت تنظر إلى الموضوع كلّه من زاوية مضحكة. لم تفاتحني مرة به، ولم تومىء إليه، ولا أخبرت الأمّ، لكنّها كانت تعرف أين أذهب، وبمن ألتقي، وربما ماذا أقول، وتعتبر كلّ ذلك طبيعياً، يتناسب مع عمري وعمر رئيفة، ولا يشكل أيّة قضيّة تستوجب الحذر، أو التدخّل، أو الكلام، أو حتى المساءلة. كانت تجهل، أنني في بعض الليالي، أترك البورة وأذهب إلى رئيفة، أدور حول خيمتها، ألقي بعض البحص من بعيد، آتي بحركات أحسب أنها كافية لتنبيهها إلى وجودي، دون أن تثير انتباه والدها الذي كان، بعد منتصف الليل، يغطّ في النوم على حصيرة أمام الخيمة، مثبتاً وجود الناطور بجسده الممدّد والعصا قربه.

لكن رئيفة لم تخرج إليّ مرة واحدة في تلك الزيارات التي تكرّرت بعد منتصف الليل. قالت لي إنّها أحسّت بي، وصارت تستيقظ في الساعة التي تسبق الفجر، وتسمع خطواتي، حركاتي، وقع الحصى التي ألقيها على الخيمة، وأنها تتمنّى أن تخرج، لكنّها تخاف. حذّرتني من المجيء، ومن ترك البورة، ولفت نظر المطعون، أو أهلي، إلا أنني لم أبال بتحذيراتها. كنت أحلم أن أراها في قميص النوم الأبيض، مكشوفة الصدر، عارية الساعدين، وأن آخذها، دون فرس، إلى بعيد، ونمشي، بل نطير، كما في تخيّلاتي، اليد باليد، والعين في العين، وأن أسمع صوتها، وأرى ابتسامتها، وأبلغ، مرة فقط، أن أعانقها، وأن تلامس شفتي شفتيها، هذه المنحة السماوية التي لا أجرؤ على التفكير بها نهاراً، أو طلبها في الضوء، أو خطفها عنوة دونما ساتر من ظلمة، أو غبش يحجبنا عن أنظار الأرض والشجر، وعن عيون السماء التي تحدّق بنا وترانا في النهار.

ومن الخير أنه لا مرآة لدينا في تلك البرية. أنا لم أشاهد نفسي أبداً في وقفة كاملة في أيّما مرآة تلك الأيام. هذا هو السبب أنني اندمجت في دوري، دور العاشق الصغير، الذي نسي أنه في بنطال قصير، ووالده في السجن، وعائلته تجمع الزيتون، والمستقبل مبهم، ولولا تشجيعات الأخت كان مظلماً، ما دمنا تحت رحى المأساة. لقد تعلّمت، بعد تلك العلاقة العاطفية مع رئيفة، أن الحبّ يتطلّب ظرفه.. صحيح أن الحبّ ليس ترفاً، ولكن الذي يسعى إلى الرغيف، لا وقت لديه، ولا قابلية، لأن يطارح الفتيات غرامه. ولعلّ أختي، وكانت مصيبة، نظرت إلى حبّي من هذه الزاوية، فرأت فيه نوعاً من وَلْدَنة، ولهذا تركتني وشأني.

عجيب أمر الإنسان، إنه قادر على نسيان الوضع الذي هو فيه وتلك نعمة كبرى. النفس، في نزوعها إلى التخطّي، التحقّق، الانعتاق من أسر الراهن، تبتكر حالة النسيان لتدفع بصاحبها بعيداً عن مطارح الفمّ، وتمدّ له في أسباب العيش.. عليه، في حال كهذه، أن يكون قد امتلك قضيّة، فاز بحبّ، عشق آخر، أقام صداقة، وجد ما يشغله عن التفكير القاتل بالظروف التي يرزح تحت وطأتها. هكذا تصير الحياة أيسر. تمرّ الأيام بسرعة. ينزاح من تحت إبهاظ الزمن، يشتعل فيه لهب ما، يقلب برودته إلى حرارة. أنا فزت بالحبّ. ذلك صنع لي بهجة. تخفّفت من التفكير المضني بما ألبس، آكل، أعمل، وبالوضع الكئيب للخيمة التي تؤوينا، والغرفة المعتمة التي هي كلّ مسكننا، وحالة الفقر السوداء التي نضطرب فيها. إنزاحت الهموم جميعاً، بقدرة قادر يصنع معجزته. صرت أفكّر، نهاري وليلي، برئيفة، أخترع لنفسي سبلاً للقاء، والحديث، والصلة. تنبت في ضلوعي شجرة للمسرة، على أغصانها ثمار ذهبية. ولكي أُمعن في خداع نفسي، أقنعها بأن علاقتي تلك ذات غاية أبعد من الشهوة. أنا «صاحب القضية» راوغت في الاعتراف بأن ما أريده ينبثق من دافع غريزيّ، رددته إلى دافع فكري، وتوهّمت أنني سأبدأ نضالي برئيفة فأكسبها إلى قضيتي. لكن رئيفة كانت تريد شيئاً آخر، وكان والدها، هو المثال بالنسبة إليها، وهذا المثال كان على درجة بالغة من الانحطاط الروحيّ، فهو يعتبر كلب الخواجه خواجه، وقد وظّف نفسه، دون مقابل، كلباً عند بيت «ف»، وعوى عندما علم بالذي فعله والدي.

— هذا كفر بالنعمة، قال لي، والدك يكفر بنعمته.

— لماذا؟

— لأن بيت «ف» أسيادنا..

— ولنفرض أنهم كذلك، هل نسكت عن ظلمهم؟

— بيت «ف» لا يظلمون.. هل رأيتهم يضربون أحداً؟

— قد لا يضربون بأيديهم.. وما حاجتهم إلى ذلك، إذا كان لديهم الشوباصي والوكيل؟

— وماذا فعل الشوباصي أو الوكيل؟

— وضرب الفلاّحين؟ أنت لم تر كيف قيّدوا صخر وضربوه، وكيف أدخلوه السجن..

— هذا اللصّ..

- لم يكن لصّاً.. من يعمل في المذبح من المذبح يأكل.. إنه يعمل

في الزيتون، وأخذ حفنة منه لأولاده، فماذا حدث؟ لقد تصرّف بحقه.

ـ وما رأيك لو ادّعى الجميع مثل هذا الحق.. ماذا يحدث عندئذ؟

ـ لا شيء.. نحن النواطير نأكل من الزيتون، هذا حقّنا..

ـ لكننا لا نسرقه..

ـ لو منعوه علينا لسرقناه.

ـ أنا أبقى جائعاً ولا أخون الأمانة..

ـ أيّة أمانة هذه؟

ـ ولكن الزيتون أمانة في عنقنا.. ألا تعرف ذلك؟ ألا تحسّ به؟

ـ بين الحق والأمانة فارق واضح..

صاح مهتاجاً:

ـ وما هو؟

ـ فارق ما نستحقّ وما نأخذ..

ـ نحن نأخذ أكثر مما نستحقّ..

ـ هل تظنّ ذلك؟

ـ بل أؤمن بذلك.. نحن لا نستحق لقمتنا..

ـ عندنا لا يفكّرون على هذا النحو.

ـ أين عندكم هذه؟

ـ في إسكندرونة..

ـ اللعنة على إسكندرونة إذا كانت عاقّة..

سكتّ أمام غضبته. كان كلب حراسه فعلاً. إعتاد هذه العبودية، وسيمضي زمن قبل أن يعي معنى الحرّية، معنى الكرامة، قيمة الحق الذي هو كسب وليس منّة من أحد. والذي لا يهتمّ بكلّ هذه المعاني، لكنه يرفض الظلم من منطلق الرجولة. هذا لا رجولة له. مخصيّ هو، كلبٌ حقيقيّ، يقوم بحراسة حقيقية، مقابل رغيف وحبّات من الزيتون. وما هو أنكى، أنه يقف ضد الآخرين. هو الذي قبض على صخر، وربما هو الذي وشى ببدّور، والآن يناصب والدي العداء، إنه ملكي أكثر من ملك. خادم مطيع عند بيت «ف» ولو نبت له ظفر لذبح به.

تجنّبت مغاضبته. خنت نفسي لأتجنّب مغاضبته. كانت ثمة رئيفة، وفي سبيل أن أراها، وأن أستمرّ في المجيء إليها، إلتزمت الصمت. صمتي المكروه هذا، الذي سيتكرّر أحياناً، كان مرفوضاً مني؛ لكنّني ما كنت قادراً على الخلاص منه. كنت أتألم إذا فكّر بذلك. الذين على باطل يهاجمون، والذين على حقّ يسكتون؟ أختي ما كانت لتسكت. لكن أختي ما كانت عاشقة. ترى، لو كان عنده ولد، وأحبّته أختي، وسمعت مثل هذا الكلام من والده، أكانت تسكت مثلما أسكت؟ أشكّ في ذلك..

رجعت، ذلك المساء، من زيارتي تعيساً، نادماً على السكوت. عدت وفي ظني أنّني لن أذهب إلى خيمة رئيفة ثانية. لكنّني، في مساء اليوم التالي ذهبت. وجدت والدها على حصيرته، راضياً، منسجماً، يشرب كأسه، لم يكن يفكر في يومه أو غده. كان على قناعة لا تتزعزع بأنه هكذا وُلد وهكذا ينبغي أن يموت. بلادته فوق مستوى الشبهة بالأسياد، وكلّ ما يفعلون كان حسناً في عينيه، وباعثاً على الراحة، كأنه أوفى الأشياء حقوقها. ولقد اصطدمت بأمثاله كثيراً. وجدتهم في المدينة والريف، في الميناء والشارع، في الحيّ وسوق الخضار، في المقهى والحديقة، في الأفراح والأتراح، ووجدت الاكتفاء قسمة بينهم، كأنما راحتهم هي عالمهم كلّه.

كان والد رئيفة طويلاً، محنيّاً من عند الرقبة، له رأس كنصف بطيخة، وعينان مغروزتان، وأنف ضخم تحته شاربان كفرشاة، وشدق واسع كشدق الضبع، وفي قدميه حذاء عتيق، مقطّع، وله إلهان، واحد في السماء والآخر على الأرض، اسمه الخواجه «د». كان أرمل، ماتت زوجه ولم يفكر بغيرها، وربما لن يفكر أبداً، فهو يهتمّ بالمنطقة الوسطى من بدنه فقط، كأنه خلق ليأكل ويشرب وينام، وقد حاولت، خلال زياراتي كلها، أن أستثير انتباهه إلى الحياة السيّئة التي نحياها، فكان جوابه واحداً في كلّ الحالات:

ـ حالنا مستورة.

ـ لكننا مشرّدون في هذا الريف، نعمل من الصباح إلى المساء وليس لنا لباس على ظهورنا، ولا طعام سوى كسرة الخبز.

ـ كسرة الخبز التي نتبلّغها كافية.

ـ الحياة ليست كسرة خبز.. والمسيح نفسه قال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

ـ ونحن لا نحيا بالخبز وحده، بل بالزيت معه..

ـ هكذا تفهم كلام المسيح؟

ـ هكذا يفهمه الخواجه والناس وهم أدرى منك ومني..

ـ ألا تعتقد أن للخواجه مصلحة في فهم كهذا؟

ـ وما هي مصلحته؟ لنقل إن الوكيل يغش، أو أنه يفسّر الأشياء على هواه، فما رأيك بالخواجه؟ تستطيع أن تشكّ في فهمه؟

ـ أنا لا أشكّ في فهمه.. أشكّ في مصلحته..

ـ حين يكون وليّ نعمتنا، تصبح مصلحته مصلحتنا، أم تنكر هذا أيضاً؟

ـ أنا لا أوافقك..

ـ ليس ضرورياً أن توافقني..

ـ ينبغي أن نفكّر..

ـ وماذا تراني أفعل؟ أفتح فمي للريح؟

ـ وإلى أين قادك تفكيرك إذن؟

ـ إلى النوم.. أن نترك الدنيا للدنيا أفضل ما نفعل.. أم تريد أن تصير خواجه؟ هذه لم تخلق لنا، كبيرة علينا. إنس أفكارك التي لا أعرف ما هي.. أم تريد أن تجادل لأنك ابن مدرسة؟ هذا هو الذي علّموك إياه في المدرسة؟

ـ ألا تحبّ المدرسة؟

ـ لا . . ما فائدتها؟
ـ ألا تريد أن تتعلم؟
ـ ما أعرفه يكفي . .
ـ ورئيفة؟
ـ رئيفة بنت، والمدرسة لم تخلق للبنات . . مع ذلك أرسلتها . . تعلّمت فكّ الحرف في مدرسة الطائفة .
ـ فكّ الحروف وحده لا يكفي . .
ـ والأفوكاتو لا يصير . نحن خلقنا للعمل، والخواجات للجامعة . . أنت مَنْ أنت؟ ماذا تظنّ نفسك؟ تريد أن تصبح أفوكاتو؟[1]
ـ ولماذا لا؟
ـ نعيماً . . أصحاب الكرامات عليهم علامات . . الأفضل أن تفكّر بتعلّم مهنة . . لماذا لا تتعلّم مهنة؟
ـ تعلّمت مهنة الحلاقة . . كنت، في إسكندرونة أجير حلاّق .
ـ عظيم . . ولماذا لم تكمّل . . ؟ غداً، حين ينتهي الموسم، عُدْ أجير حلاق، المهنة خلقت لنا والعلم لهم، العمى أسياد وجاهلون؟ ترضى بهذا؟
ـ أنا لا أرفض المهنة، لكنني لا أرفض العلم . .
ـ والعلم يحتاج إلى بيت من المال، وأنت مثلي، على الحصيرة . .
ـ سأطلب الاثنين، المهنة والعلم . .

صاح بنفاد صبر:

ـ يا ابني، يا ابني، لا تتطلّع إلى فوق، تتعب . . ضع رأسك في الأرض، كن متواضعاً . . والدك تطلّع إلى فوق، فأين هو الآن؟ في بيت خالته . لو كان مثلي، لو عرف حده ووقف عنده، أما كان الآن على البورة؟
ـ والدي دافع عن حقّ . .
ـ مرحباً حقّ . . ألا يعرف الحقّ غير جنابه؟
ـ كل إنسان مطلوب منه أن يعرف الحقّ، وأن يدافع عنه .

صاح من جديد:

ـ تراني أدافع عن باطل؟ ألا تغلق هذا الحديث وتريحني؟

أغلقت الحديث . ثمة أدمغة تتصفّح من الداخل ضدّ الفهم . تكون مدرّعة وحديدها كتيم . عبد الله هذا تتصالب في عقله العبودية والخواجات . لو اختلف أيّ فقير والخواجه كان في صفّ الخواجه . وقد كان مفهوماً لو أنه ينال أجراً على ذلك . إنه عبد الخواجات مجاناً، خادمهم دون مقابل، ورغم أنه، حسب رواية فلاّح على البورة، يسرق الزيتون ليلاً، فإنّه لا يعدّ ما يأخذه سرقة . هنا، يعتبر المسألة مونة . إنه يمّون بما يأخذ من زيتون، يعتبر نفسه خادم مذبح، ولو أنه لم يسرق، ولو أُعطي واحداً من العشرين مما يجنيه، لبقي مؤمناً أن هذا الواحد منّة من الخواجات . كان عقله في مؤخرته، وكانت هذه نامية أكثر من المعتاد، وفي جسمه كلّه خلل لا تعرف أين، لكنه مطمئن إلى انسجام الأشياء، في داخله وفيما حوله .

عندما عدت مساء، قصصت ما دار بينه وبيني على أختي، قلت لها إنه نبح، كاد يعقرني، فتأمّلتني ملياً وقالت: «يا ليت!» سألتها: «لماذا؟» قالت: «حتى تتألّم أكثر». كانت تريد إعطائي صدمة أكبر، كي أستفيق من خدعة أن الفقراء طيّبون. هي لا تؤمن بطيبتهم المطلقة هذه، تتأذّى جدّاً حين ترى فقيراً لا يعي مصلحته . كنت أقول لها: «هذا من الجهل»، فتردّ: «من العادة». أحكامها المبرمة هذه كانت مثار خلافٍ بيننا، فأنا إلى جانب عُذْرٍ ما، أبحث عنه لكل إنسان، أعذاري كلُّها تصبّ في قناة واحدة: «انعدام الوعي» لكنّها، في نزقها، قسوتها على الذين لا يعون حقهم، كرهها لكلّ هذه التشوهّات في تفكيرهم، كانت تدينهم إدانة قاطعة:

ـ اعتادوا على تقبيل الأيدي . .
ـ حين ينتشر الوعي . .

تقاطعني:

ـ الوعي استعداد . . هذا والدنا . تحسبه واعياً؟ لديه استعداد للمقاومة .
ـ وهم أيضاً سيقاومون . .
ـ متى؟
ـ حين نتوصّل إلى شرح الأشياء لهم . .
ـ مع هؤلاء البلداء لا ينفع شرح . أبو رئيفة ليس نبتة شاذّة في غير أرضها، الناس تعلّموا على الخضوع، وعلى تقبيل أيدي أسيادهم وهم راكعون . .
ـ ليس كلّ الناس . .
ـ أنا لا أقول كلّهم . .
ـ وحتى المخدوعون ستزول الغشاوة عن عيونهم فيبصرون .
ـ ومن يزيلها؟
ـ نحن . .
ـ أنا لا دخل لي في ذلك، غير قادرة على الصبر، وعلى الكلام الكثير . .
ـ في هذه الحال لن تكوني نقابية حين تعملين في الريجي .
ـ ومن قال إنني أريد أن أكون كذلك؟
ـ هذا من الجهل أيضاً .
ـ ربما . . أنا أميّة، لم ترسلني أمّي إلى المدرسة، ولا علاقة لي بشيء .

تقول ذلك بحرقة، تدرك هذا النقص وتثور عليه . غير أنّ ثورتها كانت فردية، هي ثائرة بطبعها ولا شيء غير ذلك . تستطيع أن تقاتل في سبيل الحقّ، لكنّها عاجزة عن شرحه للآخرين . ما ينقصها كان نصف صبري، وما ينقصني نصف شجاعتها . إنّها لا تهاب، لا تيأس، لا تخاف الحياة، دون أن تدري لماذا، ودون أن تحاول أن تجعل من هذه الصفات الطيّبة صفات واعية . كانت صبيّة . فارعة

(١) أفوكاتو: المحامي .

القامة. سمارها الحنطيّ ينضح بنضوج الأنثى، غير أنّ الحب لم يكن شاغلها كما هي حال امرأة في مثل سنها ونضجها. ولقد سمعت أمّي تقول لها: «أنت بنت بالخطأ. . كان أفضل أن تأتي صبيّاً» فتقول: «يا ليت!» ثم تستدرك: «سنرى ما يزيد الصبيّ على البنت، وبماذا ينفع أكثر» وإذ أهرع للإشادة بها، لتقدير كفاءتها، تحييني بكثير من الودّ: «أنا لا أعنيك أنت. أنت ابن مدرسة. . وأنت طيّب، ذكيّ، لكنك لا تحسن المجابهة»، وكنت أعجب من فراستها هذه، ومن قدرتها على تقويمي بكلمتين. وكثيراً ما فكّرت على هذا النحو: «هي شجاعة لأنها معافاة. . لماذا، يا ربّي، جعلت أختي في هذا الجسم الكامل، وجعلتني في هذا الجسم العليل»؟ لكني أبداً ما حملت نحوها حسداً أو ضغينة، على العكس، كنت معجباً بها، وبقيت معجباً بها طوال حياتي.

القامة المترفة، كحورة في عزّ نمائها، والامتلاء دون سمنة، والشعر الأسود، والعينان السوداوان، والخصر الدقيق، والساعدان الرخصان، كل شيء فيها: سماتها، تقاطيعها، نبرتها، ابتسامتها، جسارتها، كانت تؤهّلها لصفة الجميلة بجدارة، وكانت لذلك كلّه محبوبة من أبويّ، ومنّي، ومن أختها الأصغر، وأختها الأكبر. كانت مثار إعجاب لا تتقصّده ولا تطلبه، وكانت على ثقة من أنّ الزمن سيكون إلى جانبها، دون أن تمتلك مقوّمات هذه الثقة من علم أو جاه. عملت خادماً منذ الصغر، وحرمت من المدرسة، وكافحت في بيوت الناس، ولم تترعرع في وسط عائليّ يساعدها على اكتساب معارف تصبح معها جديرة بقوّة المحاكمة وقوّة الحجّة، ومع هذا فقد كانت على درجة عالية من النباهة وسرعة البديهة.

ولما حكيت لها عما يدور بيني وبين عبدالله الناطور، سألتني بحدّة:

ـ ولماذا تذهب إليه إذا كان كما تقول؟

وبعد أن لاحظت اضطرابي وصمتي قالت مع ابتسامة:

ـ هل السبب رئيفة؟

ـ رئيفة فتاة طيّبة.

ـ ولن تقول لي إنّك تريد اكتسابها لقضيّتك. .

ـ أحاول. . لكنّ والدها حشا رأسها بكل أنواع الترّهات. .

ـ وأنت تفرغه منها. . أليس كذلك؟

ـ أجد ذلك صعباً جدّاً. .

ـ هذه الجرادة تفكّر مثل ذلك الضبع.

ـ هي ليست جرادة.

ـ زعلت؟ إنما كنت أمزح. . .

ـ ليس من حقّك أن تمزحي على هذا النحو. . كنت أحسب أنّها صديقتك. . إذا كنت طيّبة معي كوني لطيفة معها. .

ـ يا ليت. . هي صغيرة وبائسة، لا أحبّ البائسين دون سبب. .

ـ ونحن؟ ألسنا بؤساء؟

ـ أنا لست كذلك. . ولا أريد. .

ـ الفقراء بؤساء بالضرورة. .

ـ لا، ليس ذلك شرطاً. أعرف فقراء ليسوا بؤساء. . البحّارة، في إسكندرونة، لم يكونوا بؤساء، كانوا يقاومون السلطة الفرنسية، وينتزعون رزقهم من الصخر. .

ـ البحارة شيء آخر. .

ـ لماذا؟ كلّنا يجب أن نكون مثلهم. . ثم ماذا يجدي البؤس؟ ما نفع أن نكون ضعفاء؟ أنا لا أحبّ الجبن ولا الجبناء. . رئيفتك هذه جبانة، ولن يكون لك نفع فيها. .

ـ أنا لا أريد منها شيئاً.

ـ ولماذا تدور حولها؟

ـ هي صديقتي لا أكثر. . نحن، في هذا الريف، لا أصدقاء لنا، أليس جميلاً أن يكون للمرء صديق؟

ـ بل! أنت تقول الحقّ. . مؤسف، ليس هنا من نصادقه. . إنني دون أصدقاء.

قالتها بأسف عميق. فوجئت بها تعترف على هذا النحو. أشفقت عليها لأنها دون أصدقاء. كانت صريحة. صراحتها كانت دائماً محبّبة. لا تحاول، تحت أيّ عذر، أن تراوغ. مستقيمة كالطلقة. رضيّة كالنسمة، لكنها جبّارة. رائع أن نعترف بما ينقصنا. أنا أخوها، لكنّني لا أعوضها عن الصديق. والصديق الذي تريده ينبغي أن يكون على مثالها، وستتعب. ربما لن تجد. ومن يدري، فقد يطامن الزمن من تطلّعها، قد يرميها بزوج يكون نقيضها، وفي حال كهذه أيّة لهفة للفارس الذي لم يأت، ستظلّ ترافقها؟

حزنت شيئاً ما لأجل أختي. كانت أكبر منيّ لكنّني كنت أغار عليها، أخاف أن يمسّها ضرّ. أن تتصرّف بشكل غير لائق، وكانت تضحك من وساوسي. تراني محافظاً. لا أرضى إن هي تزيّنت وعندما في المدينة، استخدمت أحمر الشفاه لأوّل مرة ثار بيني وبينها عراك شديد. ضربتها، ضربتني بدورها، وبعد ذلك بكت، قالت لي: «أفهم سبب تصرّفك هذا. . أنت تخاف كلام الناس. .» أنكرت، لكنّني كنت أخافه جدّاً، وكانت حياة العائلة، في تشرّدها الطويل، وما جرى لنا، مصدر هذا الخوف، وهذا ما فهمته، لكنها لم تقل ذلك، وأصرّت على أن تكون كالفتيات الأخريات، وكان ذلك من حقّها، ولكنني كنت أريد حرمانها منه، وكانت هي، في الدفاع عن هذا الحقّ، صلبة لا تبالي باعتراضاتي.

ولم أقل لها إن موقفها من رئيفة كان جائراً. لم أشأ أن أتكلّم على رئيفة بأكثر مما فعلت. غير أنني لم أخرج من الحديث مرتاحاً. إضافة إلى ذلك كان وصفها بالجرادة مهيناً. ربما كانت جرادة في قوامها، في هزال بنيتها، لكن من يملك الحقّ أن يعيّرها بذلك؟ حتى أختي لا تملكه. لقد أحببت رئيفة. ولا أريد سماع كلمة واحدة تنتقص منها، ولهذا كان التشنيع عليها موجعاً لي، وقد انعكس ذلك

في ملامحي، وأدركت الأخت أنها أساءت إليّ بمزحتها، وحاولت أن تصلح ما أفسدت، لكن اعتكاري لم يتبدّد، وبقيت العشية كلّها بعيداً عنها، منفرداً، نافراً، كأنّ شيئاً انهدم في ذاتي، كأنّ لعبة جميلة تحطّمت بين يديّ.

اعتذرت عن العشاء، زعمت أن لا شهيّة لي. سترت جرحي بردائي، حرست البورة دون أن أتبادل الحديث مع أحد. خلوت بنفسي رغم وجود الآخرين إلى جانبي. كنت غير واثق إلى حدّ اللعنة. كلمة من أختي بدّدت الكثير من خطوط الصورة التي أحملها عن رئيفة. مزّقتها بأظافر حادّة، قلبتها قلباً، رسمتها رسماً كاريكاتورياً، وهذا الرسم، الذي كان غير صحيح، لم يقابل منّي بالرفض، لم أنبذه وأنسه، ولم أتبسم لمجافاته الواقه، بل حزنت، وكان حزني شديداً، كان نابعاً عن مشاعر هزيلة، عنكبوتية، تكفي اللمسة لتحيلها هباء.

تقدّم الليل ونام الجميع، بقيت وحدي ساهراً، كان الطفل فيّ نامياً على حساب الفتى. لم أعرف أن أتصرّف كرجل، أزعجتني هذه الفسولة بأكثر مما أزعجني الوصف. في حال كهذه أنقلب إلى الداخل. يدخل بعضي في بعضي، أنكمش، أتقفّه، لا يعود لي الزهو الذي كان. أمارس نوعاً من تعذيب الذات، تنهار أشيائي وأغدو أمام لوحة سوداء. أستشعر الحاجة للتعويض، لا ألوم الآخر بل نفسي. تتضاءل هذه النفس، وتبعاً لها تتضاءل شخصيتي، تتفتت، أحتاج لوقت طويل كي أرمّمها، باذلاً جهداً كبيراً في محاولة مستميتة لدرء آثار خيبة الأمل التي تملّكتني.

كان الليل الصيفيّ بهيّاً كعادته، كان من حولي مثله كلّ ليلة. لكنّه، الليلة، لم يكن كعهده في نفسي.. الاحساس المرضيّ جعل الأشياء مريضة. السماء الزرقاء، النقيّة، بدت كئيبة، الفضاء ضاق، الريح فسدت، الأفق انسدّ، ومرارة شاعت في فمي، كأنني فقدت عزيزاً، كأنّ العاطفة التي كنت أقابل بها رئيفة قد ضاعت، ضاعت ولن تستعاد، ولن يكون لها ذلك الأثر، ولن أستطيع، بعد اليوم، أن أفتتن بها، وأن تلك الكلمة، ستنتصب جداراً ما بيننا، وستظلّ تحفر في كبدي ما حييت.

لماذا تعتريني مشاعر كهذه أمام أيّ نقد يوجه إليّ، أو يوجّه إليّ أيّما شيء أعزّه في الوجود؟ تراني أصدق ما أسمع؟ أقتنع به؟ أتأثر إلى درجة الاحباط؟ وجودي إذن رهن بغيري، كلمة تشعلني وأخرى تطفئني. ألتهب حماسة أمام الكلمة الطيبة، وأبرد كالضفدع أمام الكلمة السيّئة؟ أكون عديم القناعة بذاتي؟ ذوقي؟ رأيي؟ حقيقتي؟ أكون فاقد التوازن، إلى درجة أن عالمي يختلّ لمجرد أنّه تلقّى ضربة من أحد؟ أتكسر كزجاجة رقيقة من أول صدمة خارجية؟ أذوي كوردة لأن يداً هصرتها بأكثر مما تحتمل؟ وفي حال كهذه، كيف سأجابه الحياة؟ من يسندني إذا كنت أحتاج إلى السند في كلّ أمر أواجهه؟

أسائل نفسي، الآن، كيف تغيّرت، لا أزعم أنّني تغيّرت تماماً، فالرواسب لا تزول بسهولة. ما زلت، في مواجهة الحياة، أحتاج اليد التي تسندني، أنا مستطيع بغيره أقول، وفي شؤوني اليومية، أبحث عمّن يتعهّدني، من يحلّ مشاكلي، من يقدم إليّ الحساب ناجزاً، وأنا أقوم بدفعه. غير أن أشياء كثيرة تبدّلت، والفضل فيها يعود إلى الأفكار التي أحملها، الأفكار التي أنقذتني جسدّياً وروحيّاً، وشدّت من عزيمتي، جعلتني أثق بنفسي، بأشيائي، ودفعتني إلى المواجهة دون أن أنكمش عند الصدمة، وأذوب عند الإحباط، غدوت لا أكترث بالنقد يوجّه إليّ.

كل ما صار لي في الحياة اكتسبته اكتساباً، كلّ ما حصلت عليه دفعت ثمنه من عرقي ودموعي، ويبقى فارق واحد، أحسب أنّه مفيد. هو أنني لا أغالي في الأشياء التي اكتسبتها وحصلت عليها. ليس هذا من قبيل التواضع بل الإيمان، أؤمن أنّني فعلت بعض الأشياء، حقّقت بعض المنجزات، في الحدود التي بلغتها طاقتي. تعلّمت عمري كلّه، أن أحبّ صنيعي بأقلّ مما أحبّ صنيع غيري، وإذا كان هذا قد جنّبني الغرور، فإنّه، من جهة أخرى، أفقدني بعض الزهو، ما دام الاعتداد، في العمل الإبداعي، يعطي الإنسان أن يكون هو، ألاّ تؤثّر عليه كثيراً، تجريحات الآخرين.

تلك الليلة لم أغادر البورة. كنت منكسراً من الداخل. عبثاً أبحث في ذاتي عن مقوّمات أفضل للحوار مع غيري، لإقناعه بوجهة نظري، لحمله على حبّي، لربطه بي من خلال الإعجاب، دون أن أفطن، إلى أن إعجاب غيري، يحتاج إلى ركيزة ما، عليّ أن أنشئها، أثبتها، أجعلها تكئة في تطلّعي إلى هذا الاعجاب الذي لا يتوفّر لمجرد أنني أريده، أنشده، أسعى إليه، وإنما لأن لي صفات الفنّان أو المناضل، الصفات التي لا تُبْلَغ إلاّ بإفناء العمر في طلابها، بينا أنا في مقتبل العمر، لم أكتب إلاّ مواضيع إنشاء، هي سرّ بيني وبين نفسي، ولم أناضل إلا بنثر بعض الآراء الصحيحة ولكن الفجّة، وعليّ أن انتظر طويلاً حتى تنضج ثماري التي هي إضمار في نسغ الغيب ما تزال.

لقد حرمتني الطبيعة من المؤهّلات الفطرية. لم أمنح جمالاً في الوجه، الصوت، اليد، ولم يكن أهلي على مسكة من غنى، وليس لي من الدراسة إلاّ حظّ ضئيل، وجسمي الناحل لا يكفل لي أن أعمل عملاً يحتاج إلى قوّة العضل، والموهبة التي هي ملعقة ذهب لم تكن في فمي، وهكذا ألقتني أمّي، منذ ولادتي، في بحر متلاطم، مكتوفاً، عاجزاً، ورغبت أن أسبح، وأن أجتاز الضفّة إلى المدى الذي يتطاول اليه طموحها، لكن هذه الحقائق المثبطة كلها، كانت واضحة، بارزة، مكشوفة لي تماماً، وعليّ، في شوط السباق، الشوط الذي يفرضه وجدان حي، لفتى أعزل، أن أركض وأن ألحق بمتسابقين بيني وبينهم، بحكم النشأة، الدراسة، العائلة، مسافات طويلة.

أفكاري هذه هاجمتني تلك الليلة التي سمحت أختي لنفسها

أن تصارحني فيها. كانت الفكرة ذئباً، تعوي، تكشّر، تهاجم. وكانت أفكاري ذئاباً نهّاشة، تحيط بي من كلّ صوب، فاغرة الأشداق، بارزة النيوب، مسعورة النظرات، وبرغم مجهود مضنٍ، متواصل، للفوز بأمل، أتخذه سلاحاً في المواجهة، فإنّ الأبواب كانت مغلقة، والأرض التي أحفر فيها كتيمة، لا ريّ ولا ماء، ولم تكن لي قابلية لصنع أية كرامة ترطب حلقي الجافّ، لشدّة ما أعاني من تقاطعات الأسى الذي خيّم عليّ، في وحشة ليلي الطويل ذاك. لقد بهظتني طفولتي الشقيّة، وكان مقدّراً لي، في معاناتي الأليمة المتواصلة، أن أقضي، أن أضيع، لفرط ما كنت ناحلاً حسّاساً، لكنّ ذلك كلّه، لم يحل بيني وبين التشبُّث بالحياة. والكفاح لشقّ طريقي الذي أدمى قدميّ بأشواكه ولم يزل.

في الفجر تبدّل حالي، ابترد دماغي. انزاحت الصخرة عن صدري، صار بوسعي أن أرتّب أفكاري. أرى إليها عن بعد، أزنها دون تطفيف للكيل. أناقشها بحيدة. أصدر فيها حكماً غير جائر، غير متعسّف، غير صادر عن ذهن خرب، مثقل باليأس. السماء، فوقي، انقشعت. صارت النجوم المتراقصة مرئيّة مني، وصارت أبهى، أحلى، وأشدّ قرباً. السماء أشفقت، بدت رحيمة، في مغارها ضوء، في بستانها خضرة، في إطلالتها أنس، ولم تعد خيمة من شعر أسود. عادت زجاجيّة، حانية، وفي الرجاء المتصاعد إليها، أسقطت عليّ باقات زهر، ذات عطر ملون، زاهٍ، فيه وحده وجدت العزاء والراحة.

وراح الليل، شيئاً فشيئاً، يتقلّص. لم يبتعد مهزوماً. كان هو نفسه يتراجع، محكوماً بولوج النهار فيه، والدنيا، من حولي، في طراوة الصبح، تتضوّأ، والأشجار خلعت قبعاتها الضخمة، السوداء، وظهرت، بجذوعها، فروعها، أغصانها، كالأيدي المسحورة، المرفوعة إلى فوق، في ابتهالات صامتة، واليقظة تدبّ، باعثة الانتعاش في الأرض، هذه التي كان يخيّل إليّ أنّها تتنفّس، وأنّ لتنفسها همساً، شذى، لوناً فضّياً، والريح الصباحيّة، المدفوعة بمراوح غير منظورة، تهبّ من كل الجهات، حاملة إليّ طمأنينة تتسرّب من فمي وأنفي وعيني، وتستقرّ بين ضلوعي، مرطّبة تلك الحنايا التي كانت تحترق بوقدة هاجرة من الصحراء.

بعد ذلك أعلنت الجمال عن مقدمها برنين أجراسها. كان هذا الرنين، في تلك الأصباح، يأتي موسقاً، غيره في الأمسيات. كانت الرنّة حمامة، ومن الرنّات المتتابعة، المنغّمة، تتطاير الأسراب، نشطة مرحة، بهيجة، مؤذية بمهرجان حافل، صاخب، لكائنات لا تعرف كيف تنبعث، لكنها، في لحظة، تتشكّل وتثب، وتملأ الجوّ من حولي حياة حلوة، متحركة، متلوّنة، متكاثرة، متبدّلة، تشدّني إلى الاندغام فيها، ناسياً ما كان يعتلج في ذاتي من هموم. وكانت الطمأنينة تأتي هديّة صباحيّة مفعمة بالسكينة، معلنة اختفاء الظلمة والأشباح والهواجس، ويأتي معها الشعور بالراحة، والرضى، وانتهاء نوبة الحراسة.

لقد أحببت تلك الجمال، لا بما هي حيوانات أليفة، ومخلوقات لطيفة، بل بما هي بشيرٌ بغدٍ جديد، وعلى رنين أجراسها كنت أدخل خيمتنا وأستسلم لرقاد هنيء، عذب كالخوخة الناضجة. كنت، عندئذ، أتلمّظ خوختي، أتلذّذ بمذاقها، وأهدأ، متمدّداً على فراشي، في شوق للنعاس الذي لا يلبث أن يقبل، ويطبق جفنيّ، ويسلمني إلى لذّة النوم، كطفل أمضى ليله في مذاكرة صعبة لدرس من دروس الحياة المعقّدة بمعاناتها. كنت أنام بعمق، وسعادة، واسترخاء طفل، وبراءته أيضاً، وآخر ما أسمعه، من العالم المحيط بي، رنين تلك الأجراس المعلقة، كقلادات، في رقاب الجمال التي تتفرّق، وتدور بالخيمة، وأسمع هسيس العشب وهي تقضمه بأسنانها، وتجمعه بشفاهها الممطوطة، وتختزنه لتجترّه وهي ذاهبة آيبة بين المعصرة والبورة.

أفقت في الضحى. كانت الشمس تغسل الخيمة بشلال أشعّتها. الظلّ مال إلى جانبها، فتعرّض الجانب الذي أنام فيه إلى وقدة وهج كاوية. مسحت العرق عن وجهي، تمطّيت، ذكرت ليلة أمس، عبست بعد إشراقة، تمنّيت أن أبقى حيث أنا، في خلوتي التي توفّر لي جوّاً من العزلة يتيح لي أن أستأنف التفكير بهدوء. غير أن الحرّ الشديد، وضرورة الخروج إلى العمل. وهيئة البورة الكئيبة بوجود المطعون، كلّ ذلك دفعني إلى النهوض، هي، الآن، فطورنا وطعامنا اليومي.

كانت الشمس قد لفحت جرة الماء، ولهذا عافته نفسي. وكان المطعون أمام خيمته، وراء طاولة خشبية متنافرة الألواح، عليها أوراق مثقلة بحجارة كي لا تذروها الريح، والمطعون جالس يراجع حسابات الأمس، وعلى رأسه تلك القبعة البيضاء، المتّسخة، من الفلّين، وهو، بشكله غير المتوازي، يصدم الرؤية، ويبعث في النفس إحساساً بالكره والغثيان. صرت أنفر منه. نفوري كان تامّاً لا صلح معه، وكان منطلقاً من شعوري بالقرف أن نجاور مخلوقاً مؤذياً. فقد تمادى في عدوانيته، تجاه الفلاحين، وبلغني من أمّي أنّه منع عائلة الفلاح صخر من العمل في الكرم. كان ربّها ما يزال سجيناً بسببه، والظاهر أنه لم يتشفّ كما يجب، ولم يجعل حكّة اللؤم فيه تهدأ؛ فحاول التحرّش بالزوجة، وزعم أنّه قادر، لو طاوعته، أن يفرج عن زوجها، ومنّاها بوعود كثيرة، ثم هدّدها، ولاحقها بالأذى، فلما امتنعت عليه طردها من الكرم.

هذه الأخبار عن إساءاته المتكرّرة، المتواترة، كانت تدعوني إلى المساءلة عن صبر الفلاح، ومدى قدرته على الرضوخ، وتحمّل الاهانات. وبعد طرد زوجة صخر، صرت على ما يشبه القناعة أن الفلّاح في الريف مستلب، مستضعف، لا يرجى منه نفع. ذلك أن المطعون كان فرداً، صيحة، كلمة تأنيب، شتيمة، لكنّ أحداً، سوانا، لم يوجّه إليه إهانة، لم يردّ في وجهه، أو يوقفه عند حدّه، ولهذا فإنه تسلّط، حتى غدا في قسوته على البورة، يفوق قسوة الشوباصي في القرية.

من جهتنا كفّ عن التدخل في أمورنا. ابتعد عنّا بما يكفي لكي نعيش في جواره ولا نكلّمه. الأخت كانت له بالمرصاد. وكان يخافها، الفلاّحان على البورة تجنّبانا كي لا يثيرا غضبه. الأمّ وحدها بقيت تحيّيه، برغم كل ما بذله من جهد لإقناعنا أنه لم يتسبّب في سجن الوالد، وأن وشايته كانت منصبّة على الفلاحة بدّور، لأنّها سارقة. أنا كنت مكلّفاً بنقل الزيتون الذي نجمعه إلى البورة، وكنت أستخدم، أوّل الأمر، الحمار الذي يملكه أحد الفلاّحين، فأوعز له ألاّ يسمح لي باستخدام حماره، وعندئذ أصبحت مضطرّاً إلى نقل الزيتون على ظهري. كنت أحمله من أقصى الكرم، وأنوء تحت ثقله، ثم صارت الأخت تساعدني، لكنّني رفضت أن توصل أيّة كمية إلى البورة. كانت تحمل الكيس إلى مقربة منها، وأقوم بإيصاله إلى القبّان، دون أن أتفوّه بكلمة واحدة. غدا الصراع بيننا صامتاً. كان صمتنا هذا يقتله، وكنّا نتمسّك به في مظهر للتحدي السافر، وكان الجميع يلاحظون ذلك، وهذا ما يجعل هيبة المطعون مثقوبة، معرّضة للهزء، حتى بالنسبة لمصطو الجمّال.

أخيراً ضاق ذرعاً بهذه المقاطعة. كنت قد أفطرت وخرجت متوجهاً إلى الكرم، حيث أهلي، وكان يراقبني ولا شك، بدليل أنه رفع رأسه وأنا أمرّ بطرف البورة، وناداني:

ـ هيه، أنت!

ـ ماذا تريد؟

ـ إذا كنت لا تستطيع السهر، فسأجد من يحرس البورة بدلاً عنك. إنّنا نعمل هنا ولا نهرّج.

ـ ومن قال لك إنني لا أستطيع السهر؟ ثم ماذا تعني بالتهريج؟ هل ما ننهض به من عمل مُضْنٍ يُعدُّ تهريجاً؟

ـ بلغني أنك تنام.. أريد ناطوراً لا ينام.

ـ هذا كذب.. ما بلغك كذب.. وتستطيع التأكُّد بنفسك..

ـ هل أنتم وحدكم الصادقون؟ أليس هذا عجيباً؟

ـ لا صادق بيننا بوجودك.. أنت، بشخصك، عجيبة الدهر في الصدق!

صاح:

ـ أتسخر مني.. تعلّمت لهجة أختك؟ تكلّمني بهذه اللهجة وأنت أجير عندي؟

ـ دع أختي جانباً.. قل ماذا تريد؟ أرى في وجهك شرّاً.. تريد أن تدبرّ لي مقلباً؟ في نيّتك أن تبعث بي إلى السجن أيضاً؟ إنني ناطور، جامع زيتون، سمِّني ما شئت، ولكنّني لست أجيراً عند أحد.

ـ أولاً أنا لم أبعث بأحد إلى السجن.. وثانياً لا أريد بك شرّاً.. قم بواجب الحراسة كما ينبغي.

ـ الخلاصة.. ما هدف الاتهام هذا؟

ـ لماذا لا نتكلم بهدوء؟

ـ تتهّمني وتريدني هادئاً؟

ـ أنا لا أتّهمك، أنا، عدم المؤاخذة، أسألك..

ـ وأنا جاوبتك..

ـ ألا تعرفون أنني المسؤول هنا؟

ـ نعرف..

ـ ولماذا تتشوّفون علي؟

ـ ماذا تريد..؟ نركع لك؟

ـ أستغفر الله، ما أنا، عدم المؤاخذة، إلاّ عبد حقير..

ـ قل هذا لغيري.

ـ وأنت؟

ـ أنا حارس على البورة إلى أن يعود الوالد الذي سجنته..

صاح وقد احتقنت أوداجه:

ـ قلت لكم مئة مرة إنني لم أتسبّب في سجنه، فلماذا لا تصدّقون؟

ـ نصدّق على طريقتنا...

ـ وطريقتكم أن تقاطعوني...

ـ لا شغل لنا معك..

ـ وحين أكون الوكيل على البورة؟

ـ تصرّف كوكيل ودعنا وشأننا.. أقلع عن هذا الكلام المردّد.. أليس عندك غيره؟ وإذا لم يكن، فماذا تريد منّي؟

ـ أريد أن نتفاهم.. ننهي هذه القطيعة.. تقول لأختك أن تطامن غرورها.. أن تتخلّى عن شراستها.

ـ نتفاهم على ماذا؟ وهذه القطيعة ما سببها؟ أنا غير مسؤول عن أختي، إنها راشدة وتعرف أن تتصرّف..

ـ أختك لا تريد أن تتصرّف بعقل.. نظرتها إليّ قاسية، تحمل تهديداً مبطّناً، وقبلها والدك نظر إليَّ مثل هذه النظرة.. توعّدني، كأنه يريد أن يقول في المدينة نتحاسب.

ـ إذا كان بينكما حساب فلا بد إذن أن يُصفّى.. من عادة والدي أن يصفّي حساباته مع الآخرين..

ـ أنت لا تتهدّدني بدورك.. أليس كذلك؟

ـ أنا لا حساب لي معك.. أما والدي فشأنه شأن آخر.. أنت البادىء والبادىء أظلم.. تحمّل نتيجة ما جَنَتْه يداك..

ـ تظنّ هذا؟ أنت تعرف والدك جيّداً، تحسب أنه ينتقم؟ أنا، عدم المؤاخذة، لا أريد الدخول في ثارات مع ابن مدينتي.. نحن،

عدم المؤاخذة، لن نؤبّد في البورة، وحين نلتقي في المدينة يحسن أن نكون أصدقاء. . لنتذكّر الخبز والملح . .

ـ قل هذا لنفسك. . تذكّر ما كان بيننا. . جئنا كأهل، ونحن، كما قلت عند وصولنا، أقرباء. . أما تذكّرت كل ذلك حين سعيت إلى سجنه؟

ناح بصوت أراده صاخباً فحال جبنه دون ذلك:

ـ أتذكّر كل شيء. . إنني لا أنسى شيئاً، أنا، عدم المؤاخذة، رجل طيّب. . أقوم بواجب وكالتي. . دعوني وهؤلاء الفلاّحين. . عشر سنوات وأنا وكيل، وقبل ذلك كنت في سلك الدرك، أفهم لغة هؤلاء الناس. .

ـ وما هي هذه اللغة؟

ـ العصا. .

ـ ألا تخشى أن ينتقموا منك؟ الظلم يولد الرّغبة بالانتقام. . إذا جرت على الجبان صيّرته شجاعاً، وهؤلاء الفلاّحون ليسوا جبناء. .

ـ دعني منهم، دعني منهم. . أنا، عدم المؤاخذة، أعرف كيف أؤدّبهم. . أفعل ذلك ولا أبالي. . لا رأس بينهم يرتفع. . ما أحسب حسابه هو والدك. . رماني بنظرة تهديد وهو يذهب مع الدرك.

ـ إن يكن قد هدّدك فسينفّذ تهديده. . بيت «ف» لا يستطيعون حمايتك. . والدي لا يعرف ما هو الخوف، كان بحّاراً. .

ـ من أجل ذلك أريد التحدّث مع والدتك، مع أختك، معك. . الأفضل أن ننهي هذه المقاطعة. . أن نعود أهلاً كما كنّا. . وأن يعرف والدك أنّ ما جرى خطيئة وصارت. . وإذا كان الموسم، هذا العام، في نهايته، فهناك مواسم أخرى، أنا، عدم المؤاخذة، لن أتخلّى عنكم.

ـ نحن الذين سنتخلّى عنك. . طلوعنا إلى الزيتون لن يتكرّر. . هذه كانت سنة هجرة. . وكان ينبغي أن تقدّر ظروفنا، أن تقف معنا موقفاً طيّباً. . وعلى كلٍ دع الأشياء للمستقبل. .

ـ لنحاول أن نصفّي ما بيننا لأجل المستقبل. . قل ذلك لأمك. . قل لها إنني نادم على ما فعلت. . سأعوض عن تقصيري حيالكم. . القبّان بيدي. . والبورة تحت تصرفي. .

• نظرت في وجهه الطافح، وجبينه المحدّب، في جسمه مختلّ التوازن، في عينيه العكرتين، اللتين تطلّ منهما نظرات ثعلبية، في كرشه وساقيه القصيرتين، ورغبت في تعذيبه. أنا لا أدري ما سوف يكون موقف والدي، لكنّه أغلب الظنّ، لن ينسى ما فعله به. إن دعوته التي تحمل المساومة لن تفيده في شيء. ما معنى قوله إنّ «القبّان في يدي؟» هل يحسب أننا نرضى بزيادة بضعة كيلوات من الزيتون؟ قد تسامحه الأم، وقد أسامحه أنا، بل إنني سامحته، أنا لا أستطيع أن أحمل حقداً، ولم يلحقني منه أذى، لكن موقف والدي سيختلف. . فهو الذي تعذّب تحت سياط الدرك، وهو الذي دخل السجن. .

غادرت المطعون دون استجابة لدعوته إلى التفاهم. أشحت بوجهي عنه ومضيت، آسفاً أنني أضعت وقتي في سماع ثرثرته عن الطيبة والمصالحة. قلت في نفسي: «ليذهب إلى الجحيم. . والدي قد لا يكترث به، إنه سيحقد، إذا حقد، على أسياده، ولكنه، هو، غير جدير بالخصام، إنه عبد مثل والد رئيفة، مثل كل هؤلاء المرتزقة الذين يحرقون البخور، دون جزاء أو فائدة.

مضيت عبر الكرم إلى كتف الوادي. أعرف أنّ رئيفة تنتظرني هناك. تجمع الزيتون في هذه البقعة، وسأنبرُ لها بعض الزيتونات ونتحدّث. أختي، أمس، شوّهت صورتها في نظري. والدها، في كلبيّته، في عبوديته، أقام حاجزاً بيننا، لكن وضعي، في هذا الفقر، وهذا البنطال القصير، وهذه الحياة الملعونة، هي الحاجز الأكبر. لم يسبق لي أن أحببت، لكنّني انتهيت، ليلة أمس، إلى أن الحبّ لم يخلق لأمثالي. قد يكون هذا حكماً مخادعاً، تنقصه الموضوعية، يخلط بين العاطفة والواقع، لكنّني، أنا، لا أستطيع، في مثل حالي، أن أتقبّل عاطفة هي بمثابة الصدقة. رئيفة تحتاج إلى رجل، إلى زوج، إلى حياة عائليّة، ومن الخير لي، ولها أيضاً، أن يبتعد أحدنا عن الآخر، أن ينسى، وأن يفكّر باللقمة وحدها.

حين رأتني قادماً ابتسمت. توقفت عن العمل وابتسمت. كانت طفلة حقيقيّة، برغم نضج أنوثتها، وكان يمكن، لو كان آخر في مكاني، أن ينتقل بعلاقته معها خطوة إلى أمام. أن يقيم علاقة على أساس غريزيّ بحت. أن يختلي بها، يقبّلها، يضمّها، يلهو بها، لكنّني، أنا، لن أقدم على ذلك أبداً. محال أن أتّخذ منها أهية. لست راهباً، وأتحرّق شوقاً إليها، وفي الليالي، سواء على البورة، أو في الفراش، تهاجمني أحلام حمقاء، جسمها ميدانها، لكنّني، في النهار، أزجر نفسي، أردعها أن تسيء إلى البراءة ولو بلمسة أنكرها في مثل وضعي، لأنني، بمثالية لا أقوى على التخلّص منها، أنكر الحبّ الذي ليس له سند سوى عاطفة مراهقة.

صاحت وقد اقتربت منها:

ـ جئت أخيراً؟ حسبتك لن تأتي. . لم تكن، مساء أمس، مسروراً بالحديث مع والدي.

ـ كيف عرفت؟

ـ كنت أراقبك. .

ـ ليس كما تقولين تماماً. . كلّ ما في الأمر أن عقليّتي تختلف. . نحن جيل جديد. .

ـ والدي لا يستطيع أن يسمع حديثاً ضد الأسياد.

ـ والدك، كيف أقول؟ لا بأس.. والدك لا يعجبني، وهذا كلّ ما في الأمر..

ـ زعلت منه؟

وبعد وقفة:

ـ وهل تزعل منّي أيضاً؟

ـ لن أزعل منه ولا منك.. أفهم وضعه وأعذره.. هذه هي نتيجة الجهل. لو ذهب إلى المدرسة.

قاطعتني: •

ـ أليس هذا من الوفاء؟

ـ الوفاء لمن؟

ـ لمن نعمل عندهم، للذين هم أولياء نعمتنا..

ـ الوفاء جزاء الاحسان.. بماذا أحسن إلينا هؤلاء الأسياد؟

ـ ألا نأكل من خبزهم؟

ـ وتعبنا؟ هذا الشقاء الذي نلقاه هنا، ويلقاه مثلنا الذين يعملون في المعصرة، وفي الزراعة؟ تحسبين أنّ الأجر الذي نتقاضاه هو كل حقّنا؟ الأسياد يستثمروننا..

ـ أنا لا أفهم، لا أريد أن أفهم.. نحن نعيش والسلام..

ـ أنا لا أستطيع أن أعيش كيفما اتفق.. أريد حياة عادلة.

ـ إذن لن تتفق مع والدي.

ـ لن نتفق أبداً، وليس ذلك لأنه راضٍ بعيشه، بل لأنه، وهذا ما أثارني، يعتبر كلب الخواجه خواجه.. يضع نفسه في هذا المقام الذليل.

ـ أنت لن تشتمه أمامي أليس كذلك؟

ـ لا.. الشتائم لا تفيد..

ـ وستحبّني؟

ـ لا أدري. أنت عزيزة عندي، غالية عليّ..

ـ ألست حبيبتك؟

ـ لا.. لست حبيبتي.. وهذا لمصلحتك..

ـ كيف.. لا تحبّني ثم تقول هذا لمصلحتي..

ـ فقير مثلي لم يخلق للحبّ..

ـ ألا يحبّ الفقراء؟

ـ بلى! ولكن ما هي نتيجة حبّهم؟ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا أبحث عن كسرة الخبز؟

ـ أنت اليوم غيرك بالأمس..

ـ ذلك أنّني فكرت.. الليلة الماضية قضيتها ساهراً مفكّراً إلى الفجر..

ـ ألهذا لم تأتِ ليلاً كعادتك؟

ـ نعم.. ولن آتي أبداً..

ـ ما هذا الذي أسمعه.. هل أسأت اليك بشيء؟

ـ أبداً.. أنا الذي أسأت إلى نفسي.. سمحت لها أن تنسى الواقع الذي نعيش فيه..

ـ أنا لا أصدّق أنّك يمكن أن تنساني بهذه السرعة.. أن تفتح عيني وتدير ظهرك.. تجعلني أتعلّق بك وتقاطعني.

ـ وإذا كان هذا ما يجب؟

ـ أنا أيضاً أعرف ما يجب.. لماذا تحتكر الفهم وحدك؟

ـ لا أحتكر أيما شيء، ولكني أحكّم ضميري.. أنت فقيرة مثلي، بحاجة إلى رجل، إلى زوج، وأنا لست ذلك الرجل، ولن أكون لك زوجاً.. ألا ترين بأيّ حال أنا؟

ـ وإذا كنت أقبلك كما أنت.. وكنت أحبّك؟ لقد أحببتك منذ رأيتك.. شعرت حيالك بعاطفة قويّة، غريبة.

ـ وأنا أحببتك.. أكون كاذباً لو أنكرت، ولكن لا بدّ من التضحية.. ستنقضي أيام أخرى وينتهي موسم الزيتون.. في المدينة لن يرى أحدنا الآخر.. لا أعرف ما ستكون عليه حالي، قد لا أجد شغلاً، وقد تسوء حالي أكثر مما هي سيّئة.. فماذا نصنع بحبّنا عندئذ؟

ـ حين يحدث كلّ ذلك نفترق..

ـ سيكون الفراق، بعد الاستمرار في الحبّ، صعباً.. علينا أن نفترق منذ الآن، هذا هو قراري..

ـ علم أهلك بما بيننا؟

ـ أختي لاحظت فقط..

ـ وهي التي طلبت منك اتّخاذ هذا الموقف؟

ـ أختي لا تتدخّل في شؤوني.. قد يكون لها رأي، لكن رأيها غير ملزم لي بشيء.. لم أعد طفلاً..

ـ ولكنّك لست رجلاً ناضجاً.. هذا هو السبب في أنك تفكّر على هذا النحو..

ـ حتى لو كنت رجلاً، وناضجاً، كنت سأتخذ هذا القرار. لا أريد أن ألهو بك وأتركك..

ـ وإذا أردت ذلك أنا؟

ـ تريدين أن ألهو بك؟

ـ أريد أن تحبّني، وأن تستمر في المجيء إلينا كي أراك..

ـ وما فائدة الرؤية؟

ـ وماذا يفعل الحبيبان سوى أن يرى أحدهما الآخر؟ ألا تشتاق إليّ

إذا غبت عنك؟

ـ أشتاق.. أريد أن أراك كلّ يوم، كل ساعة، ولكن ما هو مصير كل ذلك إذا كنا سنفترق بعد أيّام؟

ـ وإذا رضيت أن تراني حتى نفترق؟

ـ لا أستطيع.. سأتعذّب.. أنت لا تريدينني أن أتعذّب..

ـ وأنت، لماذا تريد تعذيبي؟ ألستَ أنانياً في هذا الموقف؟

ـ ربما، إنني لا أقنع بأوساط الأمور.. أنْ أحبّك يعني أن أحبّك بجنون.. أن تصبحي كلّك لي..

ـ وأنا كلّي لك.. إفعل بي ما تشاء.. لكن لا تتركني..

قالتها بنبرة رجاء حارّ. هذه الخوخة السمراء، الناضجة، تريد أن تسقط بين يديّ، بل إنّها، الآن، بين يدي، لكن ماذا أفعل بها؟ وماذا أريد منها؟ ترى، لو كانت هي صاحبة فكرة المقاطعة، أما كان موقفي قابلاً لأن يكون كموقفها؟ قالت عني «أنانيّ»، ومن يجزم أنني لست كذلك؟.. الأنانية، هذه القرحة، كم أتلذّذ الآن بحكها على هذا النحو المعيب.. ترغب وأنا أرفض. تطلب أن أبقى إلى جانبها، وأهدّدها بالمقاطعة. ترى، أستطيع مقاطعتها فعلاً؟ هل الذي في مثل حالي لا يحبّ؟ وهل هذا هو السبب في أن أختي لا تحبّ؟ إذا كان ذلك كذلك، وهو كائن، فعليّ أن أقتدي بأختي، وأن أوفّر على نفسي عذابها، وأوفّر على رئيفة أن أخدعها بشكل لا يليق بفتى يحمل أفكاراً نبيلة، أو أنه يزعم ذلك.

وقفنا حائرين. بكت رئيفة. بكاؤها آلمني. تقدّمت منها. تطلّعت حولي. لم يكن ثمة أحد، كان الكرم، في البقعة التي نحن فيها، خالياً. تناولت يدها. أعطتني يدها بغير تمنّع. شددتها إلى صدري، فاستجابت، لم تقاوم. كانت تنتظر ذلك. ربما كانت تنتظره منذ التقينا. ضممتها. قبّلتها، كانت قبلتي الأولى. آه.. أيّة لذّة غريبة في مذاق الفم. مخمليّة الشفاه، والرضاب، ورائحة المسك، والشعور بأن دنيا جديدة، لذيذة، سعيدة، تنفتح للإنسان، كلّ ذلك، أعطاني إحساساً رائعاً لم أعرفه قبل الآن. ملامسة اليد استثارتني، تصاعدت الاستثارة مع تلاصق الجسدين، تصاعدت أكثر مع تلامس الشفتين، تفتّح الذكر في الجسم، تفتحت الأنثى، صار، الآن ما بيننا، حباً من نوع آخر، غريزياً، شهوانياً، مادّياً، لا يقيم وزناً لكلّ التحسّبات عن الفقر، والبؤس والزواج، إنه اللحظة المجنونة، المسعورة، الملتهبة كنار تحرق التصوّرات عن كل ما عداها.

ارتددت عنها ونظرت في عينيها، يا إلهي! ماذا جرى لعينيها؟ من أين هذا الاحمرار وهذا اللمعان؟ لماذا ترقرق ماء زجاجيّ فيهما؟ من أشعل البؤبؤين فتلظّيا كأن فيهما جمراً؟ أيّة خيالات من عالم الشوق، والرغبة، والنداء الجسدي، تفتّحت وأزهرت في بياض المقلتين؟ والرجفة في التقاطيع، والارتعاش، كما عند مسّ الكهرباء، ورائحة الأنوثة، وأشياء تُحسُّ ولا تقال، لا توصف، كأنما تبدّل كل شيء في لحظة عاصفة، كما في الطبيعة حين يهبّ إعصار ويلفّ الكائنات بريح هوجاء، كاسحة، محطّمة، ثائرة إلى أبعد حدود الثورة. عدت إلى ضمّها، استجابت بغير كلام، همس خفيف فقط، تأوُّه كأنّ الروح تفارق البدن، اشتعال غدا معه الجسد حارّاً كأنّ ناراً أضرمت فيه من الداخل. لم تكن لديّ مرآة. وما كنت أفكّر فيها، ففي عيني رئيفة رأيت نفسي، وكنت على مثل حالها حرارة واستجابة الآن، في هذه اللحظة، تدفّقت الموجه البكر وأفنت نفسها على الصخر. ارتطمت، علا الرذاذ الأزرق. هسهست حصى، أطارت الريح الرمل، جُنّ الشاطىء، السماء شفّت، ظهرت رؤى، حدثت معجزة، صار كلّ شيء واضحاً، ودونما تجربة، كنت قادراً، وراغباً، أن أقبّلها حتى الارتواء.

إنفصل أحدنا عن الآخر. ومن جديد نادى أحدنا الآخر. يا لغرابة التجربة! أهذا ما يحدث بين شابين؟ هل هذا ما يقال له حبّ؟ نحن كاسيان عاريان. في ضوء النهار، في البرّيّة المسحورة، بين الأشجار التي رأت وشهدت، فوق أرض لم تعد أرضاً. صارت عوسجة. تحت سماء فاغرة الفم، تحدّق منبهرة إلى لعبة معدية. أيّتها السماء! يا منبسطاً أزرق، مدّي يديك وارفعينا إليك. اخطفينا في سُحبك، انزعي أقدامنا من التربة، خذينا إليك، غيبّينا في مغارتك النورانية، احجبينا عن الأنظار ببلورك الشفّاف، دعينا نَفْن في إغماءة ندخلها مرةً وإلى الأبد.

السماء لم تجب. السماء لا تجيب. ترصد، تراقب، تنصت. أما أنا فكنت أرتجف. أتلفّت خائفاً، أراقب الجهات الأربع مذعوراً، عقلي يقول: كفى! جسدي يعصى عقلي، غريزتي المستيقظة لا تلوي على شيء مما ينذر به ضميري، المتعة وحدها سيّدة الموقف، المتعة في أقصى انفجارها، في مدى اندفاعها، في رغبتها البهيمية لأن تتدحرج كموجة تحمحم، في انقذافها نحو الشاطىء، حيث الارتطام والفناء، حيث التحوُّل الذي يحدث إثر تلاقي غيمتين، منهما ينقدح الشرر ويحدث البرق.

زاد في تسعير الموقف أن رئيفة لا تقاوم. فقدت كل طاقة للمقاومة. صارت عجينة مطواعة. لم تقل قبّلني، لكن النداء إلى التقبيل، كان يصرخ من مسامها. وكان عليّ، أنا المصاب بكلبيّة اللّذة، أن أمتنع عن السفر المحموم في طلابها، أو أوقف اندفاعي نحوها، أن أقول لها، مع قبلة على الخدّ، يكفي الآن يا رئيفة، لقد ذهبنا بعيداً. لكنّني، بدلاً من ذلك، تابعت عناقي لها. جلسنا. التوت رقبتها. ما عادت فقرات متماسكة. انحلّت الفقرات. بقي اللحم وحده يمسك العنق. قبّلت العنق، قبّلته، وبعد لأي استطاعت أن تقول:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لا أدري..

ـ ألا تظن أنه كان يجب ألاّ نفعل ما فعلنا؟
ـ ما فعلناه كان بريئاً، كانت قبلات بريئة.
ـ مع ذلك، ما كان يجب..
ـ نعم يا رئيفة، ما كان يجب، لكنّ الشوق، الرغبة، اندفاعة الشباب، كانت أقوى منا.. لا تندمي..
ـ أنا لا أندم.. لست نادمة.. ولكن ما يحزنني أنّك قبّلتني وأنت تنذرني بالهجران..

وبعد لحظة صمت سألت:

ـ هل ستهجرني فعلاً؟
ـ أيرضيك أن يتكرّر ما فعلنا.. وأنت تعلمين أنّه لن يكون لعلاقتنا أيّما مستقبل؟
ـ وأنت، أيرضيك، بعد العناق الذي جرى اليوم، أن تتركني؟
ـ وماذا أفعل؟ انظري! طريقنا مسدود.. لا إمكانية لديّ، ما أنا إلا فتى مراهق، اندفعت مع عاطفتي.
ـ أنت إذن لا تحبّني؟
ـ أنا أحبّك. قلت لك ذلك كثيراً، ولكن ما جدوى الحب، إذا كان كلانا محكوماً بوضعه؟
ـ وضعي طبيعي. أنا أحبّك وأريدك.. سأنتظرك ما شئت من السنوات..
ـ لا تنتظري يا رئيفة.. مستقبلي غير مضمون.. أنت بحاجة إلى زوج..
ـ ولماذا أحببتني؟ إذا كنت لا تريدني فلماذا أغريتني بحبّك؟ هل كنت أستحقّ هذه المعاملة منك؟

ألفيت في لهجتها نبرة مطالبة. صار لها عليّ حق. أحببتها، فهي إذن تطالب بديمومة الحبّ. حين كانت العلاقة، في حدود الكلام، ما كانت ترتّب عليّ واجباً. ربّما، هي نفسها، في ذلك الكلام المتبادل، لم تجد ما ترتّبه. الآن اختلف الوضع. أصبح من حقها، بعد أن تجاوزنا الكلمات إلى القبل، أن تطالب بالاستمرار. لقد ذاقت حلاوة القبل، وظنّي أنها تتمسّك بها، وترغب في معاودتها. كل شيء واضح إذن. ما يحدث بين كل حبيبين، يحدث بيننا، لكنّني، أنا، لا أريد. أشعر بالتبعة، أحمد الله أنّ علاقتنا في المرحلة الورديّة بعد، غير أنّني، بعدها، لا أريد التقدّم خطوة واحدة.

أعلنت أنّني منصرف. كان انصرافي كبيراً قياساً إلى صغري. إنني لن أنسى حبّها، سخاءها، منحتها، التي تشبه منحة أميرة مترفة، ومن المؤكد أنّني، مثلها، أريد أن تدوم هذه العلاقة، بيد أن وضعي لا يسمح بالاستمرار. القطيعة تكون الآن أو لا تكون. هي متيّمة وأنا متيّم، وحبل السرة الذي يربط بيننا سيلتفّ أكثر فأكثر إن نحن تمادينا. ليست فكرة الزواج هي الرابط، نستطيع أن نضعها في خلفيّة الأشياء، ما هو مطلوب أن يبقى الودّ، وفي هذا الإطار تقوم علاقات كثيرة، طبيعية، لا يعترضها إثم، ولا خوف، لولا أن مثاليّتي، في عدم خدع الآخرين، وعدم اللّهو بهم، تتقاضاني احتراماً أوفر لذاتي. لا أحد يعرف بقصّتنا حتى الآن، وأختي تحسب أن الرباط لا يتخطّى الألفاظ، وفي هذه البرّية، ظلّ لقاؤنا مستوراً، لكن النار الصغيرة التي نوقدها سيتصاعد منها دخان، وقطعة الندّ ستكون لها رائحة.

قلت لرئيفة وقد صحّ عزمي على الفراق:

ـ هذه آخر مرة نلتقي فيها.
ـ لماذا؟ ألم أكن طيّبة معك؟
ـ كنت طيّبة جداً، وهذا بالذات ما يدفعني إلى ردّ كلام السوء عنك.
ـ ومن سيتقوّل علينا؟ نحن هنا في عزلة عن الناس..
ـ لكنّنا لسنا في عزلة عن ضميرنا..
ـ أنا ضميري مرتاح.. لم أقترف إثماً معك.
ـ هذا صحيح، ولكن لنحكّمْ عقلنا.
ـ عقلنا؟ نحكّم عقلنا.. ألست واثقاً من نفسك؟
ـ أنا واثق، ولكن لماذا نستمرّ في درب مسدود؟
ـ نمشي فيه إلى أن يواجهنا السدّ..
ـ نحن أمام السدّ الآن..
ـ ليس بعد.. إلاّ إذا كنت تريد أن تهرب منّي..
ـ فسّري الأمر كما يحلو لك..
ـ موقفك هذا هرب من إنسانة لم تسيء إليك..
ـ ولا أنا أسأت إليها..
ـ إذن ما هو مبرّر خوفك؟
ـ أنا لا أخاف..

رازتني بعينين شعّ فيهما الإتّهام قبل أن تتلفظ به:

ـ أنت خائف.. تتذرّع بما لست أدري كي تتهرّب مني.
ـ قلت لك إنني غير خائف.. وممّ أخاف؟
ـ من الارتباط، من فكرة الزواج، اعترف، وسأقطع علاقتي بك..
ـ أنا لا أرى سبيلاً إلى الخطوبة أو الزواج..
ـ لا تقول ذلك من قلبك..
ـ تريدينني أن أقسم..
ـ وما نفع القسم؟ دعني إذا أردت. أهنتني بهذه القطيعة.. ولكن لا بأس. سأتحمّل الإهانة. تصرّف كما يحلو لك. ولن أستجديك أكثر. ليكن الفراق ما دمت تطلبه.. لكن لا تنسَ أنّ هذا ليس تصرّف فتى يحبّ ويحترم حبّه.

قالتها ومضت. تركتني واقفا وابتعدت. مشت دون أن تلتفت إلى وراء. تسمّرت مكاني لا طاقة لي على مبارحته، كان واضحاً أن رئيفة احتقرتني.. موقفي هروب. هي التي قالت ذلك، وكان ما قالته صحيحاً، غير أنّ التهمة، على قسوتها، تظلّ أفضل من الإيغال في

عاطفة ستكون محبطة. تمنيت فتاة أخرى غير رئيفة. تمنّيتها غنيّة، لا يزيد لهوها عن أن يكون ترفاً لا يحول دونها ودون أن تجد رجلها بثروتها. لعنت نفسي على حذري، على وجداني، على كثرة حساباتي، ورحت، في لذّة مشبوهة، أجرح نفسي، أنهشها، أكيل لها الشتائم، حتى أتخفّف من شعور ضاغط، من تبكيت ضمير في تجربة حبّ لم يسبق لي أن مررت بها.

سرت على غير هدى بين أشجار الزيتون. كنت فرحاً وترحاً في آن. كنت سعيداً بسلبيّتي التي أراحتني. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرتاح بها في السلب. كان اليأس، كإحدى الراحتين، ملاذي، وقد لجأت إليه، ووجدت الأمان، كصرصار، بين الشقوق.

وداعاً إذن يا حبّي الأول، وداعاً يا يقظة العاطفة، ووداعاً يا رئيفة التي أحببتها بكلّ ما في روحي من طاقة على الحبّ.

لم أعرف أين أذهب. كان التجوال، دون هدف، أفضل من التوجّه إلى أهلي ومواجهة نظرات أختي. كانت الريح ساكنة، وجنادب تئزّ من حولي، وضياء كثيف يتبقّع على جسدي. وكنت بحاجة إلى النسيان في النوم.

وتمدّدت ونمت.